شرح الأربعين النووية

الحديث الثامن والعشرون

أُوْصِيْكُمْ بِتَقْوَى اللهِ

اللقاء الواحد والثلاثون

الحديث الثامن والعشرون:

عَن أَبي نَجِيحٍ العرباضِ بنِ سَارِيَةَ رضي الله عنه قَالَ: وَعَظَنا رَسُولُ اللهِ مَوعِظَةً وَجِلَت مِنهَا القُلُوبُ وَذَرَفَت مِنهَا العُيون. فَقُلْنا: يَا رَسُولَ اللهِ كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوصِنَا، قَالَ: (أُوْصِيْكُمْ بِتَقْوَى اللهِ عز وجل وَالسَّمعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافاً كَثِيراً؛ فَعَلَيكُمْ بِسُنَّتِيْ وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فإنَّ كلّ مُحدثةٍ بدعة، وكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ) رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح. بإسناد حسن.

ترجمة الراوي:

العرباض بن سارية السلمي، يكنى أبا نجيح، روى عنه ابنته أم حبيبة، وعبد الرحمن بن عمرو السلمي، وجبير بن نفير، قال الذهبي: قال عتبة بن عبد: أتينا النبي -ﷺ- سبعة من بني سليم، أكبرنا العرباض بن سارية، فبايعناه.

العرباض بن سارية السلمي صحابي جليل، من أعيان أهل الصفة، سكن حمص. وهو أحد البكائين الذين نزل فيهم قول الله عز وجل: {وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ} [التوبة: 92].

مواقف العرباض بن سارية مع النبي -ﷺ-:

يروي موسى بن سعد عن عرباض بن سارية قال: كنت ألزم باب رسول الله -ﷺ-في الحضر والسفر، فرأينا ليلة ونحن بتبوك وذهبنا لحاجة فرجعنا إلى منزل رسول الله -ﷺ-وقد تعشى ومن عنده من أضيافه ورسول الله -ﷺ-يريد أن يدخل في قبة ومعه زوجه أم سلمة، فلما طلعت عليه قال: "أين كنت منذ الليلة؟" فأخبرته، فطلع جعال بن سراقة وعبد الله بن مغفل المزني فكنا ثلاثة

كلنا جائع، نعيش بباب النبي -ﷺ-، فدخل رسول الله -ﷺ-البيت فطلب شيئاً نأكله فلم يجده، فخرج إلينا فنادى بلالاً: "يا بلال! هل من عشاء لهؤلاء النفر؟" قال: لا، والذي بعثك بالحق لقد نفضنا جربنا وحميتنا! قال: "انظر عسى أن تجد شيئًا"، فأخذ الجرب ينفضها جرابًا جرابًا فتقع التمرة والتمرتان حتى رأيت بين يديه سبع تمرات ثم دعا بصحفة فوضع فيها التمر، ثم وضع يده على التمرات وسمى الله وقال: "كلوا بسم الله"... فأكلنا، فأحصيت أربعة وخمسين تمرة أكلتها، أعدها ونواها في يدي الأخرى، وصاحباي يصنعان ما أصنع وشبعنا، وأكل كل واحد منهما خمسين تمرة، ورفعنا أيدينا فإذا التمرات السبع كما هي!

🗁أحاديث رواها العرباض بن سارية عن الرسول -ﷺ-:

وعن العرباض بن سارية أن رسول الله -ﷺ-قال: " يختصِمُ الشُّهداءُ والمتوفَّونَ على فُرُشِهِم إلى ربِّنا في الَّذينَ يتوفَّونَ منَ الطَّاعونِ، فيقولُ الشُّهداءُ: إخوانُنا قُتِلوا كما قُتِلنا، ويقولُ المتوفَّونَ في فرشِهِم: إخوانُنا ماتوا على فرشِهِم كما مُتنا، فيقولُ ربُّنا: انظُروا إلى جراحِهِم، فإن أشبَهَ جراحُهُم جراحَ المقتولينَ، فإنَّهم منهم ومعَهُم، فإذا جراحُهُم قد أشبَهَت جراحَهُم"صحيح النسائي.

🗁بعض كلمات العرباض بن سارية:

كان العرباض بن سارية، يحب أن يُقْبَضَ، فكان يدعو: "اللهم كبرت سني، ووهن عظمي، فاقبضني إليك".

🗁وفاة العرباض بن سارية:

قال محمد بن عوف: كان قديم الإسلام جدًّا، وقال خليفة: مات في فتنة ابن الزبير، وقال أبو مسهر: مات بعد ذلك سنة خمس وسبعين.

🖎منزلة الحديث:

🗐هذا الحديث حديث جليل، يحتوي على علوم فيها الحث على التقوى، والسمع والطاعة في غير معصية، والإخبار عن اختلاف الناس في المستقبل، فيلزم من ذلك التمسك بسنة الرسول -ﷺ-، وسنة الخلفاء الراشدين، وترك البدع المضلة[الإلمام].

♦وقد اشتمل على وصية أوصاها الرسول صلوات الله وسلامه عليه لأصحابه وللمسلمين عامة من بعده، وجمع فيها التقوى لله عز وجل، والسمع والطاعة لأئمة المسلمين، وفي هذا تحصيل سعادة الدنيا والآخرة، كما أوصى الأمة بما يكفل لها النجاة والهدى إذا اعتصمت بالسنة، ولزمت الجادة، وتباعدت عن الضلالات والبدع[الوافي].

♦قال ابن العطار رحمه الله: هذا الحديث معجزةٌ وعَلَمٌ من أعلام النبوة [شرح الأربعين النووية لابن العطار].

❁((وعَظَنَا رسولُ اللهِ -ﷺ- مَوْعِظَةً)) الوعظ: هو التذكير المقرون بالترغيب أو الترهيب، وكان النبي -ﷺ- يتخول أصحابه بالموعظة، ولا يكثر عليهم؛ مخافة السآمة.

❁((وجِلَتْ منها القلوبُ))؛ أي: خافت. كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[الأنفال:2].

❁((وذَرَفَتْ))؛ أي: سالت ((منها العيونُ)) بالدموع. وهو كناية عن البكاء.

❁((فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ كَأَنَّهَا))؛ أي: تلك الموعظة ((مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوصِنَا))؛ أي: وصية كافية جامعة لمهمات الدين والدنيا.

❁قال: ((أُوْصِيْكُمْ بِتَقْوَى اللهِ عز وجل)) وتقوى الله: اتخاذ وقاية من عقابه؛ بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، وهذا هو حق الله، وهي وصية الله للأولين والآخرين؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: 131].

❍ومعنى التقوى: طاعة الله بامتثال أمره واجتناب نهيه على علم وبصيرة.

((وَالسَّمعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ)) يعني لولاة الأمور، وإن تأمر عليكم عبد، أي صار أميراً "عبد" أي مملوكاً.

وقال ابن العربي رحمه الله: والذي عندي فيه أن النبي -ﷺ-أخبر بفساد الأمر ووضعه في غير أهله، حتى توضع الولاية في العبيد، فإذا كانت فاسمعوا وأطيعوا؛ تغليبًا لأهون الضررين، وهو الصبر على ولاية من لا تجوز ولايته؛ لئلا يغير ذلك فيخرج منه إلى فتنة عمياءَ صماءَ، لا دواء لها، ولا خلاص منها [عارضة الأحوذي].

والسمع والطاعة هنا ليسا على الإطلاق، بل هما مقيدان بما كان وفق كتاب الله وسنة رسوله؛ كما في الحديث: ((ما أقامَ فيكم كتابَ اللهِ)) [رواه أحمد]، ولحديث: ((إنَّما الطَّاعَةُ في المَعروفِ))[رواه البخاري]، ولحديث: ((لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصيةِ الخالقِ))[صحيح الجامع الصغير].

❁((فإنه مَنْ يَعِشْ منكم بعدي فسَيَرَى اختلافًا كثيرًا)) هذا إخبار منه -ﷺ- بما وقع في أمته بعده من كثرة الاختلاف في أصول الدين وفروعه، وفي الأعمال والأقوال والاعتقادات، وهذا موافقٌ لما ثبت عنه من افتراق أمته على بضع وسبعين فرقة، وأنها كلها في النار إلا فرقة واحدة، (والَّذي نفسُ محمَّدٍ بيدِهِ لتفترِقَنَّ أمَّتي علَى ثلاثٍ وسبعينَ فرقةً واحدةٌ في الجنَّةِ وثِنتانِ وسبعونَ في النَّار قيلَ يا رسولَ اللَّهِ مَن هم قالَ الجماعَةُ) وهي ما كان عليه أصحابه؛ ولذلك قال: ((فعليكم بسُنَّتِي، وسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِيْنَ))؛ أي: الطريقة القويمة التي تجري عليها السنن، وهي السبيل الواضحة، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين يعني الذين شملهم الهدى، وهم الأربعة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، رضي الله عنهم أجمعين.

وأمره -ﷺ- بالثبات على سنة الخلفاء الراشدين لأمرين: أحدهما: التقليد لمن عجز عن النظر، والثاني: الترجيح لما ذهبوا إليه عند اختلاف الصحابة؛ قاله ابن دقيق العيد رحمه الله.

❁((عَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ))، أي: آخِرِ الأضْراسِ؛ يَعني بذلك الجِدَّ في لُزومِ السُّنَّةِ والتَّمسُّكِ بها، وهو أيضًا كناية عن شدة التمسك بها.

❁((وإيَّاكُم ومُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فإنَّ كلَّ بدعةٍ ضلالةٌ)) قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: فيه تحذير للأمة من اتباع الأمور المحدثة المبتدعة، وأكد ذلك بقوله: (كلَّ بدعةٍ ضلالةٌ)، والمراد ما أحدث مما لا أصل له في الشريعة يدل عليه، وأما ما كان له أصل من الشرع يدل عليه فليس ببدعة شرعًا، وإن كان بدعة لغة، فقوله -ﷺ- : ((كلَّ بدعةٍ ضلالةٌ)) موجِبَةٌ للضَّلالةِ والغِوايَةِ، ويَضِلُّ بها صاحِبُها، من جوامع الكلم، لا يخرج عنه شيء، وهو أصل عظيم من أصول الدين، وأما ما وقع في كلام السلف من استحسان بعض البدع اللغوية لا الشرعية، فمن ذلك قول عمر رضي الله عنه في التراويح: نعمت البدعة هذه! وروي عنه أنه قال: إن كانت هذه بدعة، فنعمت البدعة، وروي أن أبي بن كعب قال له: إن هذا لم يكن، فقال عمر: قد علمت، ولكنه حسنٌ، ومراده أن هذا الفعل لم يكن على هذا الوجه قبل هذا الوقت، ولكن له أصولٌ من الشريعة يرجع إليها، فمنها: أن النبي -ﷺ- كان يحث على قيام رمضان، ويرغب فيه، وكان الناس في زمنه يقومون في المسجد جماعاتٍ متفرقةً ووحدانًا، وهو -ﷺ- صلى بأصحابه في رمضان غير ليلةٍ، ثم امتنع من ذلك معللًا بأنه خشي أن يكتب عليهم، فيعجزوا عن القيام به، وهذا قد أُمِنَ بعده -ﷺ- ، ومن ذلك أذان الجمعة الأول، زاده عثمان لحاجة الناس إليه، وأقره علي، واستمر عليه عمل المسلمين، وروي عن ابن عمر أنه قال: هو بدعة، ولعله أراد ما أراد أبوه في التراويح.

أُعطي جوامع الكلم ونوى بها الحكم، فيقول الكلمات المختصرات: وهي تعني سعادة الدنيا والحياة الآخرة، قال العرباض بن سارية –رضي الله عنه–: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ –ﷺ– ذَاتَ يَوْمٍ، فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَعَظْتَنَا مَوْعِظَةَ مُوَدِّعٍ فَاعْهَدْ إِلَيْنَا بِعَهْدٍ. فَقَالَ: «عَلَيْكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، وَسَتَرَوْنَ مِنْ بَعْدِي اخْتِلَافًا شَدِيدًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْأُمُورَ الْمُحْدَثَاتِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ».

ولنا مع هذه الكلمات وقفات:

الوقفة الأولى مع قول الصحابي –رضي الله عنه–: «وعظنا رسول الله –ﷺ– موعظة»: فيه أن النبي –ﷺ– يعظ أصحابه، ويذكر أصحابه، طاعة لله –عز وجل–: (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ) [الشعراء:214]، (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) [الأحزاب:45].

وفيه وإن كان بعض أصحابه، وفيه أنه كان يعظ أصحابه ويذكرهم، فمهما كان من الإنسان فضلًا وإحسانًا وتقى وصلاحا فهو بحاجة إلى التذكير والوعظ (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) [الذاريات:55]، فها هو إمام الواعظين يعظُ أفضل الأمة وأفضل القرون.

وكان –ﷺ– يعظ أصحابه بأمر من الله (وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا) [النساء:63]، (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ) [النحل:125].

من أصول أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي والغفلات.

وقد أخبر النبي –ﷺ– أن الإيمان يخلق ويبلى في قلب المسلم كما يخلق الثوب ويهترئ فقال–ﷺ–:(إنَّ الإيمانَ لَيَخْلَقُ في جَوْفِ أحدِكُمْ كَما يَخلَقُ الثَّوبُ، فاسْألُوا اللهَ تعالَى: أنْ يُجَدِّدَ الإيمانَ في قُلوبِكمْ)(صحيح الجامع).

والقلوب تصدأ مع طول الغفلة وقلة الذكر والانشغال بالدنيا، ونقص الطاعة والعبادة... فإذا قاد التساهل والغفلة وقلة الديانة إلى الوقوع في المعاصي كانت المصيبة.

فإن المعاصي نكات سوداء تنكت في القلب فما تزال به حتى يسود تماما، وتكون كالران الذي يغطي القلب ويلف جوانبه، فتسبب قسوة القلب وظلمته ووحشته، حتى يقرأ القرآن فلا يتأثر قلبه، ويذكر بالله فلا تلين جوارحه، ويرى العبر والعظات فلا ينتبه إليها ولا يلتفت، ويأتي على

سمعه القوارع فلا يتأثر قلبه ولا يقشعر جلده... (كَلَّا بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ)[المطففين:14].

وقد شبه لنا رسول الله -ﷺ- المعاصي وأثرها على قلب صاحبها بالسُّحب التي تأتي على القمر فتغطيه، وتخفت نوره فما يزال يخفت حتى يكاد أن يذهب ضوؤه، ففي الحديث الذي رواه أبو نعيم وصححه الألباني، قال -ﷺ-: "مَا مِنَ الْقُلُوبِ إِلَّا وَلَهُ سَحَابَةٌ كَسَحَابَةِ الْقَمَرِ مُضِيءٌ إِذْ عَلَتْهُ سَحَابَةٌ فَأَظْلَمَ إِذْ تَجَلَّتْ عَنْهُ فَأَضَاءَ" صحيح الجامع

فإذا تراكمت سحب المعاصي على القلب حجبت نور الإيمان فيه كما تحجب السحابة الكثيفة نور القمر عن الأرض، فإذا انقشعت السحب ظهر نور القمر لأهل الأرض مرة أخرى؛ كذلك إذا انقشعت سحب المعاصي والذنوب عن القلب ظهر نور الإيمان في القلوب.

فيحتاج المسلم أن تكون له محطات لتجديد الإيمان، ومحطات يتزود فيها بالإيمان أشبه بمحطات الوقود التي تتزود بها السيارات وإلا توقف العبد كما تتوقف السيارة عند نفاذ وقودها.

لقد فهم السلف الكرام هذا المعنى وأدركوه، وهم أعلم الناس بالله ودينه وشرعه، ولهذا كانوا يتواصون فيما بينهم ويتناصحون بزيادة الإيمان فيقول بعضهم لبعض: "هيا بنا نؤمن ساعة".

❍وعن عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ أنه كان يَأْخُذُ بِيَدِ النَّفَرِ من أَصْحَابِهِ فَيَقُولُ: "تَعَالَوْا نُؤْمِنُ سَاعَةً، تَعَالَوْا فَلْنَذْكُرِ اللَّهَ وَنَزْدَدْ إِيمَانًا، تَعَالَوْا نَذْكُرُهُ بِطَاعَتِهِ لَعَلَّهُ يَذْكُرُنَا بِمَغْفِرَتِه".

❍إنَّ المؤمن القريب من إخوانه المُجالِسَ لهم، يعلو إيمانه، ويزداد يقينه، والبعيد عنهم يضعُف إيمانه.

❍وقال الحسن البصري رحمه الله: إخواننا أغلى عندنا من أهلينا، فأهلونا يذكّرونا الدنيا، وإخواننا يذكّرونا بالآخرة.

❍الابتعاد عن حلقات العلم الشرعيّ يُضعِفُ الإيمان، ويشعر المبتعد بقسوةٍ في قلبه، والاقتراب منها يقوّي الإيمان، ويقرّب العبدَ من الرحمن، ويُبعدُ عن المسلم وساوس الشيطان، ويُبصر المسلمَ بما يحبُّه الله فيفعله، وما يبغضه فيجتنبه.

والبلاغة في الموعظة مستحسنة؛ لأنها أقرب إلى قبول القلوب واستجلابها، والبلاغة هي التوصل إلى إفهام المعاني المقصود وإيصالها إلى قلوب السامعين بأحسن صورة من الألفاظ الدالة عليها وأفصحها وأعلاها للأسماع وأوقعها للقلوب.

الوقفة الثانية قوله: «وجِلَتْ منها القلوبُ وذرَفتْ منها العيونُ»: في هذا إشارة إلى أن صلاح القلب بصلاح العين، وفساد القلب بفساد العين، وأنهما مرطبتان وبينهما علاقة، وفيه فضل البكاء، والخشية من الله فعين بكت من خشية الله حرمت على النار في نص الحديث المسدد، وفي الحديث «لاَ يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللهِ حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ»، وفي الصحيحين من السبعة الذين يظلهم الله في ظله «رجلٌ ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه».

ومن مظاهر قسوة القلب: عدم التأثر بالمواعظ، وعدم التأثُّر بالقرآن، فلا يتأثَّر بوعد القرآن ولا وعيده، ولا يعتَبِرُ بقَصَصه وأمثاله، ولا يخاف إذا ذُكرت آيات العذاب والجحيم والقيامة والحشر والساعة، وإذا ذُكرت الدنيا، وجدته خبيرًا بشؤونها، عالمًا بأحوالها، يتكلَّم الساعاتِ الطِّوال لا يملُّ ولا يكلُّ.

ومِن مظاهر قسوة القلب الغفلةُ عن ذكر الله، ((مَثَلُ الذي يَذْكُرُ رَبَّهُ والذي لا يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الحَيِّ والمَيِّتِ)) صحيح البخاري

وايضاً من مظاهر قسوة القلب عدمُ الغضب إذا انتُهِكَت حرمات الله: فنراه يرى المنكر بعينيه، ويسمعه بأذنيه، فلا يغيّره ولو بكلمة، بل ربما جَلَسَ معهم وهم يسمعون الأفلام الماجنة، والمسلسلات الفاجرة، وربما يجلسُ معهم وهم يغتابون الناس ويأكلون في لحومهم.

ومِن مظاهر قسوة القلب تَرْكُ الطاعات أو التكاسل عنها.

وهذه مِن أعظم علامات ضعف الإيمان وقسوة القلب.

علاج قسوة القلب: تدبُّر القرآن، استشعار عظمة الرحمن، حلقات العلم الشرعي، تنويع العبادات، كثرة ذِكْر الموت، كفالة اليتيم، الانكسار بين يدي الله.... وغيرها من العبادات

وفي قوله: «ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب» هذان الوصفان فيهما مدح الله المؤمنين عند سماع الذكر (وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ) [الحج:34]، (الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) [الحج:35]، (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ) [الحديد:16]، (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى

ذِكْرِ اللَّهِ) [الزمر:23]، (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ) [المائدة:83].

وكان النبي –ﷺ– يتغير حاله عند الموعظة كما قال جابر: «كَانَ رَسُولُ اللهِ –ﷺ– إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ، وَعَلَا صَوْتُهُ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ، حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ: «صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ» (أخرجه مسلم).

وفي الصحيحين يقول أنس: «خَرَجَ حِينَ زَاغَتِ الشَّمْسُ، فَصَلَّى الظُّهْرَ، فَقَامَ عَلَى المِنْبَرِ، فَذَكَرَ السَّاعَةَ، فَذَكَرَ أَنَّ فِيهَا أُمُورًا عِظَامًا، ثُمَّ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَسْأَلَ عَنْ شَيْءٍ فَلْيَسْأَلْ» فكان يعظ أصحابه ويذكرهم وقال: «أَنْذَرْتُكُمُ النَّارَ، أَنْذَرْتُكُمُ النَّارَ، حَتَّى لَوْ أَنَّ رَجُلًا كَانَ بِالسُّوقِ، لَسَمِعَهُ مِنْ مَقَامِي هَذَا، قَالَ: حَتَّى وَقَعَتْ خَمِيصَةٌ كَانَتْ عَلَى عَاتِقِهِ عِنْدَ رِجْلَيْهِ».

وفي الصحيحين قال: «وَأَشَاحَ بِوَجْهِهِ، ثُمَّ ذَكَرَ النَّارَ فَتَعَوَّذَ مِنْهَا وَأَشَاحَ بِوَجْهِهِ، – قَالَ شُعْبَةُ: أَمَّا مَرَّتَيْنِ فَلاَ أَشُكُّ – ثُمَّ قَالَ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ» فبكلمة طيبة وهكذا –عليه الصلاة والسلام– يعظ أصحابه بموعظة تدخل القلوب، ومن ثم تظهر آثارها على الجوارح وذرفت منها العيون.

يُروى في الآثار أنّ عمر بن ذرّ (ت 156هـ) "سأل أباه يوما: يا أبت، ما لك إذا تكلّمت أبكيت النّاس، وإذا تكلّم غيرك لم يُبكهم؟ فقال: "يا بُنيّ، ليست النّائحة الثّكلى مثلَ النّائحة المستأجرة" (المُجالسة للدينوري، ص736)

قال زياد بن أبي سفيان (ت 63هـ): "إذا خرج الكلام من القلب وقع في القلب، وإذا خرج من اللّسان لم يُجاوز الآذان".

لأجل هذا، فالأئمّة والخطباء، أحوج ما يكونون إلى الرّوحانية وإلى الأعمال الخفية التي ترقّق قلوبهم وتجعل كلامهم يخالط أفئدتهم وأرواحهم قبل أن يخالط ألسنتهم، وأحوج ما يكونون إلى الإلحاح على الله بالدّعاء بأن يصلح سرائرهم ويرزقهم الإخلاص في أقوالهم وأعمالهم وأحوالهم، وأحوج ما يكونون إلى تلمّس ومراجعة نياتهم بين الحين والآخر، ولو كان ذلك قبل وبعد كلّ خطبة أو درس، فهو أكمل وأنفع لهم ولمن يسمعون كلماتهم.

يقول أيوب السّختياني (ت 131هـ): قال لي أبو قلابة: "يا أيّوب، إذا أحدث الله لك علما، فأحدث له عبادة، ولا يكن همّك أن تُحدّث به".

قال القرطبي رحمه الله: في قوله تعالى: (وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)، وعد من الله تعالى بأن من اتقاه علمه أي يجعل في قلبه نوراً يفهم به ما يلقى إليه وقد يجعل في قلبه ابتداء فرقاناً أي فيصلاً يفصل به بين الحق والباطل ومنه قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ [الأنفال:29].

الوقفة الثالثة: «كأنها موعظة مودعٍ فأوصنا»: ذلكم أن لحظات الوادع تخرج صادق الكلمات، أي تخرج صادق الكلمات النِّفاع والفوائد الجِمَاع، وإذا أردت عملك ينفعك فأعمله كالمودع له، وفي قوله: كانت موعظة مودعٍ على أنه كان قد أبلغ في تلك الموعظة ما لم يبلغ في غيرها فلذلك فهموا أنها موعظة مودع، فإن المودع يستقصي ما لا يستقصي غيره في القول والعمل، ولذلك أمر أن يصلي المرء صلاة مودع؛ لأن من استشعر أنه مودعٍ بصلاته أتقنها على أكمل وجهها.

ولربما كان وقع منه تعريضٌ في تلك الخطبة توديع لأصحابه كما في حجة الوداع «لِعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا» وطفق يودع الناس فقالوا: هذه حجة الوداع، ولما رجع من حجته إلى المدينة جمع الناس بماء بين مكة والمدينة وخطبهم وقال: «أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَ» (أخرجه مسلم). فحث على التمسك بكتاب الله ووصى بأهل بيته.

وحينما صلى رسول الله -ﷺ- على قتلى أحد ثم صعد المنبر كالمودع للأحياء والأموات -عليه الصلاة والسلام-.

والوقفة الرابعة قوله: «أوصيكم بتقوى الله»، التقوى هي وصية الله للأولين والآخرين، وهي وصية الله في كتابه المبين ورسوله الأمين -عليه الصلاة والسلام-: (وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ) [النساء:131].

والتقوى كما قال طلق بن حبيب: "أن تعمل بطاعة الله على نورٍ من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخشى عقاب الله"، ويقول ابن مسعود: «هو أن يطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر».

كما قال أبو هريرة وسئل عن التقوى، فقال: "هل أخذتَ طريقًا ذا شوك"، قال: نعم، قال: "كيف صنعت؟"، قال: إذا رأيتُ الشوكَ عدلت عنه أو جاوزتُه أو قَصرت عنه، قال: "ذاك التقوى".

يقول ابن المعتز: خَلِّ الذُنوبَ صَغيرَها وَكَبيرَها ذاك التُقى واصنع كماشٍ فَوقَ أَرضِ الشَوكِ يَحذُرُ ما يَرى لا تَحقِرَنَّ صَغيرَةً فإِنَّ الجِبالَ مِنَ الحَصى.

وصية رب العالمين: (وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى)[البقرة: 197] أي: فإن خير الزاد وأنفعه للعباد في الحال والمآل والمعاد وأبلغه وأوصله إلى المقصود: تقوى الله، بفعل أوامره واجتناب نواهيه، فهي خير الزادين في الدنيا والآخرة، وهي الزاد الذي لا ينقطع نفعه، للدار التي لا تزول ولا تحول، في جنات الخلود.

قال ابن كثير: لما أمرهم بالزاد للسفر في الدنيا أرشدهم إلى زاد الآخرة، وهو استصحاب التقوى.

قال الشاعر:

إذا أَنْتَ لَمْ تَرْحَلْ بِزَادٍ مِنَ التُّقَى وَلاقَيْتَ بَعْدَ المَوْتِ مَن قد تزَوَّدَا

نَدِمْتَ على ألاَّ تَكُونَ كمِثْلِهِ وأنكَ لَمْ تُرْصِدْ لِمَا كانَ أَرْصَدَا

التقوى فيها سعادة الدنيا والآخرة، لعمرك ما الإنسان إلا في دينه فلا تترك التقوى اتكالًا على النسب،

لقد رفع الإسلام سلمان فارس *** ووضع الشرك النسيب أبا لهب

قال -ﷺ-:"مَنْ أبْطأَ بهِ عملُهُ لمْ يُسرِعْ بهِ نَسبُهُ" صحيح الجامع

وجعل الله التقوى هي ميزان الحقّ الذي يوزن به الناس، لا ميزان الحَسَب والنسب والمال والشهرة؛ فقال الله عز وجل:﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[الحجرات: 13].

وعلى قدر منازل الناس من التقوى تكون منازلهم عند الله، والله جلَّ وعلا عليم خبير، بخلاف المنازل عند الناس، الذي ينظرون الى الظاهر دون الباطن، فكلما زاد المنصب، والثروة، والنسب، ارتفعت منزلته في قلوبهم، ولو كان عند الله من أوضع الناس بمعاصيه.

وعن أَبي هُريرةَ رضي الله عنه، عن رَسُول الله -ﷺ- قَالَ:" إِنَّهُ لَيأتِي الرَّجُلُ السَّمِينُ العظِيمُ يَوْمَ الْقِيامةِ لا يزِنُ عِنْد اللَّه جنَاحَ بعُوضَةٍ" متفقٌ عَلَيه.

أما المتقي وإن كان فقير وليس أمير ولا وزير فإنه يرتفع بتقواه حتى يسكن أعلى الجنان مع سيد المتقين –ﷺ–، وعن ابنِ مَسعودٍ رضي الله عنه (أنَّه كان يَجتَني سِواكًا مِن الأراكِ، وكان دَقيقَ السَّاقَينِ، فجَعَلَتِ الرِّيحُ تكفَؤه، فضَحِكَ القَومُ منه، فقال رسولُ اللهِ –ﷺ–: مِمَّ تَضحَكون؟! قالوا: يا نبيَّ اللهِ، مِن دِقَّةِ ساقَيهِ، فقال: والذي نفْسي بيَدِه، لَهُمَا أثْقَلُ في الميزانِ مِن أُحُدٍ). رواه أحمد

والوقفة الخامسة في قوله: «والسمع والطاعة»، أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة فهاتان الكلمتان تجمعان سعادة الدنيا والآخرة، وأما التقوى فهي كافلة بسعادة الآخرة لمن تمسك بها، وهي وصية الله للأولين والآخرين.

وأما السمع والطاعة لولاة أمور المسلمين ففيها سعادة الدنيا وفيها تنتظم مصالح العباد في معايشهم، وبها يستعينون على إظهار دينهم وطاعة ربهم كما قال عليّ: "إنَّ النَّاس لا يُصلحهم إلاَّ: إمامٌ برٌّ، أو فاجرٌ؛ فإن كان برًّا فللراعي وللرعية؛ وإن كان فاجرًا عَبَدَ فيه المؤمنُ ربَّه".

وقال الحسن: في الأمراء "هم يلون من أمورنا خمسة الجمعة، والجماعة، والعيد، والثغور، والحدود"، والله ما يستقيم الدين إلا بهم وإن جاروا وظلموا،

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم *** ولا سراة إذا جهالهم سادوا

وبهذين الأصلين وصى النبي في خطبة الوداع كما عند أحمد والترمذي كان يقول: "يا أيها الناس اتقوا الله وإن تأمَّر عليكم عبدٌ حبشي مجدع، فاسمعوا له وأطيعوا ما قام فيكم كتاب الله".

والوقفة السادسة: «وإن تأمر عليكم عبد حبشي»، وفي صحيح البخاري عن أنس: «اسمعوا وأطيعوا، وإن استعمل عليكم عبدٌ حبشي كان رأسه زبيبة»، وفي مسلم عن أبي ذر: «أوصاني رسول الله أن أسمع وأطيع ولو كان عبدًا حبشيًا مجدع الأطراف» ففيه شدة السمع والطاعة مهما كانت صفات الأمير بالاستجابة درأ للمفاسد وجلبًا للمصالح، وحفاظًا على الأمر واستقراره، ودرأ للشر واستفحاله.

والوقفة السابعة في قوله: من يعش منكم من بعدي فسيرى. فيه التحذير من الاختلاف والشقاق، والنزاع والافتراق، وأن الاختلاف شرٌ وبلاء وسوء وداء، ولهذا جاءت الشريعة بالاجتماع (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا) [آل عمران: 103]، (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ) [آل عمران:110].

(وَتَعَاوَنُوا) (وَالَّذِينَ آمَنُوا) ضمائر الجمع تفيد الاجتماع والرحمة، والتواصل والعطف وقوة اللحمة، وعند مسلم: «إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا» وفيه: ..... «وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا».

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسرا *** وإذا افترقن تكسرت أحادا

وقول الله: أبلغ (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ) [آل عمران:103].

أمنية الشيطان وبغيته الافتراق والنزاع والشقاق، وشريعتنا جاءت بالرحمة والاجتماع، فنجتمع لنتآلف ونترابط ونتواصل ونتلاحم، وفي قوله: «فمن يعش منكم بعدي فسيرى اختلاف كثيرًا» هذا إخبار منه بما وقع في أمته بعده من كثرة الاختلاف في أصول الدين وفروعه في الأقوال والأعمال، والتقريرات والاعتقادات.

والسنة: هي الطريقة المسلوكة فيشمل ذلك التمسك بما كان عليه هو وخلفاؤه الراشدون من الاعتقادات والأعمال، وفي ذكر هذا الكلام بعد هذا الأمر بالسمع والطاعة لولي الأمر إشارة إلى طاعة ولي الأمر؛ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ) [النساء:59]، إلا أنه لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الله، إنما الطاعة بالمعروف.

الوقفة الثامنة في قوله: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين»: السنة هي الوحي الرباني، والمصدر الثاني ولا طريق للعباد إلى الجنة إلا بالكتاب والسنة، أين طريق الجنة؟ طريقها الكتاب، ثم السنة، علينا أن نتمسك بسنة النبي -ﷺ-، والاحتذاء حذوه فمن علامة حبك لله وعلامة مغفرته ذنبك إتباع النبي -ﷺ-، قال تعالى: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) [آل عمران:31].

يا رب إن ذنوبي في الورى *** وليس لي عمل في الحشر ينجيني

وقد أتيتك بالتوحيد يصحبه *** حب الرسول وهذا القدر يكفيني

ومحبته تقتضي إتباعه -ﷺ-، والتأسي به في جميع الأحوال كما قال الكبير المتعال: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) [الأحزاب:21].

الوقفة التاسعة: «وسنة الخلفاء الراشدين»: وفي وصفهم الراشدين المهديين أنهم على الحق إذ الناس ثلاثة أقسام: راشد، وغاوي، وضال.

⇦فالراشد: ممن عرف الحق وعمله وأتبعه.

⇦والغاوي: عرف الحق ولم يتبعه.

⇦والضال: لم يعرفه بالكلية.

📝وكل راشدٍ فهو مهتدٍ، وفي أمره باتباع سنته وسنة خلفائه الراشدين بعد أمره بالسمع والطاعة لولاة أمور المسلمين عمومًا دليلٌ على أن سنة الخلفاء الراشدين متبعة كاتباع سنته -ﷺ-.

📝فرضي الله عن الصحابة أجمعين، وليس في الأمة كالصحابة في الفضل والمعروف والإصابة بأنهم قد شاهدوا المختار، وعاينوا الأسرار والأنواع، وجاهدوا في الله حتى بان سبل الهدى، فها هو -عليه الصلاة والسلام- يشيد بفضلهم وذكرهم، وفي الصحيح خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، فلا كان ولا يكون مثلهم -رضي الله تعالى عنهم-.

📌والوقفة العاشرة: «إياكم ومحدثات الأمور»: التحذير من البدع؛ لأنها تخالف السنة، وكلما خرجت بدعة ماتت سنة، ولهذا في الصحيحين من حديث عائشة: «من أحدث في أمرنا هذا من ليس منه فهو رد».

وفي رواية لمسلم علَّقها البخاري «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» إذًا علينا باتباع النبي -ﷺ-؛ لأن اتباعه هو الركن الثاني من أركان العمل الصالح، العمل الصالح ركناه الإخلاص والمتابعة،

شَرْطُ قُبُولِ السَّعْيِ أَنْ يَجْتَمِعَا *** فِيهِ إِصَابَةٌ وَإِخْلَاصٌ مَعَا

لِلَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ لَا سِوَاهُ *** مُوَافِقَ الشَّرْعِ الَّذِي ارْتَضَاهُ

(لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) [الملك:2]: أخلصه وأصوبه فلا يقبل العمل إلا إذا كان خالصًا صوابًا على سنة رسول الله -ﷺ-، ولهذا من قواعد شهادة أن محمدًا رسول الله، أن لا يعبد الله إلا بما شرع رسول الله، يقول أبو العالية في قوله: (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) [الحجر:92]، قال: "كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعملون؟ و مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ؟".

📝واعلم بأن الأجر ليس بحاصلٍ إلا إذا كان فيه صفتان لا بد من إخلاصه ونقائه، وكذا متابعة الرسول -ﷺ-.

وفي قوله: وإياكم ومحدثات الأمور تحذير للأمة من إتباع الأمور المحدثة المبتدعة، وأكد بذلك بقوله: "كل بدعة ضلالة"، فهي من جوامع الكلم التي لا يخرج عنه شيء وهو أصل عظيمٌ من أصول الدين وهو شبيه بقول: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد».

وفي رواية لمسلم علقها البخاري: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد» إذًا يجب علينا أن نتبع النبي -ﷺ- في جميع أقواله وأعماله لأن الله -عز وجل- أمرنا بذلك وجعل طاعة النبي -ﷺ- واجب الطاعة، ولهذا جمع الله -عز وجل- بين الإخلاص والمتابعة بقوله: (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) [الكهف:110].

❁فهذه كلمات وإشارات على هذا الحديث العظيم الذي ينبغي العناية به وتطبيقه، والعمل به، والنظر في مفرداته فهو من جوامع الكلم ونوابغ الحكم.

المراجع:

❶المراجع: الأربعين النووية شرح الشيخ ابن عثيمين رحمه الله بتصرف.

❷ أوصيكم بتقوى الله عز وجل والسمع والطاعة عبد العال سعد الشليّه.

❸ خطبة عن حديث: (الْبِرُّ: حُسْنُ الْخُلُقِ) حامد ابراهيم.

❹في فضل حسن الخلق: عبد الله بن علي الطريف.